نزوُل القُـرْآن عِنْدَ المُطَهَّرِ بن عَلِي بن مُحمَّد الضَّـمَدِي (1048هـ) في تفسِيرهِ (الفُرَاتُ النَّمِيرُ فِي تَفْسِيرِ الكِتَابِ المُنِير)

د . نورة بنت عبدالعزيز العلّي

الأستاذ المشارك بجامعة الأمير سطام بن عبد العزيز

أ . أشواق بنت عبد العزيز بن سعد الضعيان

ماجستير بقسم التفسير والحديث بجامعة الأمير سطام بن عبد العزيز

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين ، حمداً يليق بجلاله وعظيم سلطانه وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله خير الخلق وخاتم المرسلين وهادي الأمم والآخذ بها إلى أقوم السبل ، فصلى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن تمسك بهداه واهتدى بهديه إلى يوم الدين وسلم تسليماً كثيراً ، أما بعد :

فعلوم القرآن تتناول جانباً مهماً في دراسة التفسير ، وهذه الدراسة جاءت لتسليط الضوء على موضوع من موضوعات علوم القرآن وهو: " نزول القرآن " من كتاب "الفرات النمير في تفسير الكتاب المنير"، للعلامة المطَهَّر بن علي بن محمد الضَّمَدي. لتوضح موقف الضّمدي من مسألة نزول القرآن وعنايته بها ، والإفادة من آرائه ومقارنتها بأقوال العلماء في المسألة .

وقد تناولت الدراسة نبذة عن العلامة الضَّمدي، وتعريف نزول القرآن وبيان أهميته ، وموقف الضمدي من نزول القرآن، وفيه: نزول القرآن منجماً، والقول في أول ما نزل وآخر ما نزل من القرآن الكريم ، وفي نزول القرآن على سبعة أحرف .

مشكلة البحث:

تعد مسائل علوم القرآن ذات أهمية ، وتفسير الضَّمدي(الفرات النمير في تفسير الكتاب المنير) من التفاسير التي اهتمت بعلوم القرآن .

ونظراً لأهمية معرفة مسائل علوم القرآن في تفسير الفرات النمير جاء هذا البحث لدراسة مسائل نزول القرآن، وإبراز موقف الضمديمنها ، ومقارنة بأقوال الضمدي مع أقوال غيره من المفسرين .

أهداف البحث:

1- جمع مسائل نزول القرآن من كتاب التفسير النمير.
2- إبراز موقف الضمدي من نزول القرآن الكريم.
3- الوقوف على القول الراجح في مسائل نزول القرآن.

أهمية البحث:

1- يوضح موقف الضمدي في مسائل نزول القرآن.
2- يكشف عن آراء أجلة من العلماء في مسائل نزول القرآن .
3- يقارن بين ما قرره الضمدي في نزول القرآن في تفسيره ، وما قرره أشهر المفسرين في تفاسيرهم .

منهجية البحث:

المنهج المتبع هو المنهج التحليلي الوصفي وفق الخطوات التالية:

1- جمع المسائل في نزول القرآن من تفسير الفرات النمير.
2- دراسة أقوال الضمدي في المسألة.
3- ذكر الأقوال الأخرى التي ذكرها المفسرون في المسألة .
4- المقارنة بين ما قرره الضمدي في نزول القرآن،وما قرره أشهر المفسرين في تفاسيرهم.
5- توثيق المادة العلمية على النحو التالي:

أ- عزو الآيات إلى سورها.

ب- تخريج الأحاديث النبوية.

ج- توثيق الأقوال المنقولة عن العلماء.

ترجمة الأعلام غير المشهورين ترجمة موجزة.

المبحث الأول:

نبذة عن العلامة المطهر الضّمدي

المطلب الأول:الحياة الشخصية:

اسمه:هو جمال الدين،المطهر بن علي بن محمد بن علي الضمدي،[1] الشُّقيري[2]

وكنيته:أبو محمد.

مولده:ولد العلامة المطهر الضمدي في قرية الشُّقيري من أعمال وادي ضَمَد، ليلة الأحد السادس والعشرين من شهر شوال سنة أربع وألف من الهجرة النبوية[1].

(1) نسبة إلى بلدة ضمد،الواقعة في وادي ضمد،وتبعد عن مدينة جازان من جهة الشمال الشرقي حوالي 40 ميلاً. انظر: البلدان عند ياقوت الحموي للأكوع (187/2) ، والمعالم الأثيرة في السنة والسيرة لمحمد شراب (ص 161)

(2) الشقيري: قرية تقع شمالي وادي ضمد ، تبعد عن ضمد حوالي 17 كم وعن أبو عريش حوالي 26 كم شمالاً. انظر: المعجم الجغرافي، للعقيلي (ص158)

نشأته:نشأ العلامة الضَّمدي نشأة حسنة في حجر والده القاضي علي بن محمد النُّعمان، وغذّاه، بالحلال المحض الذي لا يدخله شبهة.

وقرأ القرآن العظيم وحفظه،وعندما توفي والده رحل إلى طلب العلم،وقرأ علوم الأدب والتفسير،وتلقى الحديث سماعاً من علماء اليمن[2].

المطلب الثاني:الحياة العملية:

مشايخه:

1- عبد الرحمن اليمني [3].
2- السيد الطيب المؤيدي [4]
3- الفقيه سعيد الهبل[5].
4- السيد أحمد بن المهدي المؤيدي[6].

---

(1) انظر: العقيق اليماني(خ)، لعبدالله بن النعمان (لوح 763-767).
(2) الفرات النمير (14/1).
(3) عبدالرحمن بنعبدالله بن صلاح الخولاني، كان نبيلاً فاضلاً حسن التلاوة للقرآن ، ولّي القضاء للإمام المؤيدي،توفي قبل سنة (1054هـ). انظر: مطالع البدور،لابن أبي الرجال (39/3.
(4) أحمد السيد الطيب بن أحمد المؤيدي، وكان معظما مبجلا له الجهاد والرباط مع الإمام الحسن بن علي بن داوود ومع الإمام القاسم. انظر: النبذة المشيرة إلى جمل من عيون السيرة،للمطهر الجرموزي (307/1 .
(5) سعيد بن صلاح الهبل ، مرجع علماء الزيدية في علم الفروع ، علامة فقيه،مدقق ، سكن صعدة وتتلمذ عليه كثيرون. انظر:العقيق اليماني(خ)، لعبدالله بن النعمان، لوح:(330)، البدر الطالع (96/1 .
(6) هو: الإمام أحمد المهدي المؤيدي،العلامة ، كان رجلا كريما سيدرا عالما، من البارعين في الرئاسة ، توفي سنة 1044هـ. انظر: العقيق اليماني،لعبدالله بن النعمان، لوح: (384 .(

مكانته وثناء العلماء عليه:

ظهرت مكانة المطهّر بن علي الضَّمدي العلمية وذاع صيته في أنحاء اليمن وفاق أقرانه في كثير من العلوم.

قال أخوه المؤرخ عبدالله بن علي النعمان: " علّامة الزمن وفخر اليمن ومرجع العلماء العاملين ، وخاتمة المحققين ومجتهد العصر ،الفقيه العلامة النحوي التصريفي ، الأصولي المفسر، الحافظ الثبت الحجة ،المجتهد المطلق ،كان إماماً في الفروع وسائر علوم الأدب والأصلين والتفسير والحديث [1].

ويقول العلامة الشوكاني ذاكراً شيئاً من صفاته:" العالم المشهور ، المفسر النحوي مصنف المنقح على شرح الخَبيصي للكافية ومؤلف التفسير المسمى بالفرات،وهو تفسير مفيد جداً،مع اختصاره يدل على قوة ملكة صاحب الترجمة في العلوم،ورسوخ قدمه في فنونٍ عدة،وكان مشهوراً بالذكاء والفطنة وجودة الحفظ" [2].

(1) انظر: العقيق اليماني،لعبدالله بن النعمان، لوح (480).
(2) البدر الطالع،للشوكاني (ص827).

مؤلفاته:

ذكر المترجمون جملة من مؤلفات الضمدي خلال ترجمته،منها:

1- "الفرات النمير في تفسير الكتاب المنير".

2- "الطرفة في الطب والحكمة".

3- "جلاء الوهوم مختصر ضياء الحلوم"، وهو اختصار لكتاب: " ضياء الحلوم"، مختصر: " شمس العلوم"، اختصره محمد بن نشوان الحميري من كتاب أبيه الشهير: " شمس العلوم ."

4- "المنقح شرح الموشح"، وهو شرح للموشح للخبيصي في الصرف .

5- "روضة الأزهار ولباب الأفكار"، وهو شرح للأزهار[1].

وفاته:

توفي –رحمه الله– وقت صلاة العشاء ليلة الثلاثاء،الرابع عشر من شهر رمضان،سنة 1048هـ[2].

(1) الفرات النمير (1/ 32).

(2) المصدر السابق.

المبحث الثاني:

نزول القرآن الكريم عند الضمدي، وفيه مطلبان

المطلب الأول:تعريف نزول القرآن وبيان أهميته:

أولا:تعريف نزول القرآن الكريم:

النزول لغة:النزول في الأصل:هو انحطاط من علو، يقال:نزل عن دابته، ونزل في مكان كذا، حطّ رحله فيها[1].

قال ابن فارس:"النون والزاء واللام كلمة صحيحة تدل على هبوط شيء ووقوعه، ونزل عن دابته نزولاً، ونزل المطر نزولاً، والتنزيل:ترتيب الشي ووضعه منزله [2].

ويطلق النزول أيضا على الحلول، ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ﴾ [سورة الصافات: 177]. [3]

و ما ذكره أهل اللغة من أن النزول من علو،فهو يوافق أصل معنى نزول القرآن،حيث أنه قد نزل من الله العلي العظيم كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝١٩٢ نَزَلَ بِهِ

(1) مفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني(419/2).
(2) معجم مقاييس اللغة، لابن فارس (417/5) مادة (نزل).
(3) لسان العرب، لابن منظور (656/11) مادة (نزل)

ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ ﴾ [سورة الشعراء: 192-195].

فذلك معنى النزول في الاصطلاح،وهو يوافق حقيقته اللغوية.

أما النزول في القرآن الكريم:فقد ورد لفظ (النزول)في القرآن الكريم على ثلاثة أنواع:

النوع الأول:نزول مقيد بأنه من الله ﷻ.

النوع الثاني:نزول مقيد بأنه من السماء.

النوع الثالث:نزول مطلق غير مقيد بهذا أو بذاك.

فالنوع الأول:وهو المقيد بأنه من عند الله تعالى اختص بالقرآن الكريم،فلم يرد إلا معه في آيات كثيرة،كقوله تعالى: ﴿قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ﴾ [سورة النحل: 102].

وهذا التنصيص بأنه من اللهﷻوتخصيص القرآن بذلك له دلائله: ففيه بيان أنه منزل من الله، لا من مخلوق من مخلوقات الله، كما تقول بذلك المعتزلة .

وأما النوع الثاني: وهو النزول المقيد بأنه من السماء ،فيتناول نزول المطر من السحاب، ونزول العذاب، ونزول الملائكة من عند الله، وغير ذلك، وقد ورد في آيات كثيرة ذكر إنزال الماء من السماء، كقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا

وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [سورة البقرة: 22]

وجاء في إنزال العذاب من السماء قوله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ فَأَنزَلۡنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾ [سورة البقرة: 59]،وغيرها كثير .

وقال تعالى في إنزال الملائكة من السماء: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَلَٰٓئِكَةٞ يَمۡشُونَ مُطۡمَئِنِّينَ لَنَزَّلۡنَا عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكٗا رَّسُولٗا﴾ [سورة الإسراء: 95].

وأما النوع الثالث:وهو الإنزال المطلق،فهو عام لا يختص بنوع خاص من الإنزال.من ذلك قوله سبحانه: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ﴾ [سورة الحديد: 25]،وغيرها من الآيات،حيث لم يرد فيها تعيين المنزل منهكما ورد في النوعين قبله،فهو إنزال مطلق يفسر بحسب السياق،أو بما ورد موضحاً له في مواضع أخرى [1].

قال ابن تيمية:" ليس في القرآن و لا في السنة لفظ (نزول)، إلا وفيه معنى النزول المعروف، وهذا هو اللائق بالقرآن، فإنه نزل بلغة العرب، ولا تعرف العرب نزولاً إلا

(1) نزول القرآن الكريم والعناية به في عهد الرسول،لمحمد الشايع (ص5) بتصرف .

بهذا المعنى، ولو أريد غير هذا المعنى لكان خطاباً بغير لغتها، ثم هو استعمال اللفظ المعروف له معنىً في معنىً آخر بلا بيان، وهذا لا يجوز"[1].**ثانيا:أهمية نزول القرآن الكريم** :

أنزل الله القرآن على رسولنا محمدﷺلهداية البشرية،فكان نزوله حدثًا جللًا يؤذن بمكانته لدى أهل السماء وأهل الأرض،فإنزاله الأول في ليلة القدر أشعر العالم العُلوي من ملائكة الله بشرف الأمة المحمدية،التي أكرمها الله بهذه الرسالة الجديدة؛ لتكون خير أمة أخرجت للناس،وتنزيله الثاني مفرَّقاً على خلاف المعهود في إنزال الكتب السماوية قبله،آثار الدهشة التي حملت القوم على المماراة فيه،حتى أسفر لهم صبح الحقيقة فيما وراء ذلك من أسرار الحكمة الإلهية،فلم يكن الرسولﷺليتلقى الرسالة العظمى جملة واحدة ويُقنع بها القوم مع ما هم عليه من صَلَفٍ وعِناد،فكان الوحي يتنزل عليه تباعاًتثبيتاً لقلبه،وتسلية له،وتدرجاً مع الأحداث والوقائع،حتى أكمل الله الدين،وأتمّ النعمة [2].

المطلب الثاني:نزول القرآن عند الضمدي وموقفه منه.

أولا:نزول القرآن منجماً:

اختلف العلماء في كيفية نزول القرآن الكريم على أقوال، ذكر الضمدي منها قولين :

القول الأول:أن للقرآن الكريم نزولين:

(2) مجموع الفتاوى ، لابن تيمية (257/12)

)2 (مباحث في علوم القرآن ، لمناع القطان (ص100 .(

الأول:نزل جملة واحدة إلى السماء الدنيا ليلة القدر في رمضان.

الثاني: نزل بعد ذلك منجماً على رسول اللهﷺفي بضع وعشرين سنة، حسب الوقائع والأحوال من بعثته إلى وفاته .ﷺ

قال الضمدي عند تفسير قوله تعالى:﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[سورة البقرة: 185]: " ومعنى إنزال القرآن فيه إنزال أول شيء منه، كما تقول:دخل الجيش يوم الأحد، ولو لم يدخل آخرهم إلا اليوم السابع، وقيل:نزل كله في رمضان إلى السماء الدنيا، فهو المراد من الآية" [1].

وقال عند تفسير قوله تعالى:﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [سورة الإسراء: 106]:" {فَرَقْنَاهُ} أنزلناه مفرقاً،أي:منجماً بدليل قراءة أُبَيٍّ:{فرّقناه} بالتشديد،وانتصابه بفعل يفسره ما بعده.

(1) الفرات النمير(178/1).

{عَلَىٰ مُكۡثٖ} على مُهل وتُؤدة فإنه أيسر للحفظ؛ وذلك أنه نزل في ثلاث وعشرين سنة على حسب الحوادث "[1].

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ﴾[سورة القدر: 1]، قال الضمدي:"{إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ} جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا" [2].

والذي يظهر اختيار الضمدي لهذا القول،و هو قول ابن عباسﷺوقد اختاره جمهور المفسرين من المتقدمين كالطبري،والواحدي،والبغوي،والقرطبي، وابن كثير،والزركشي،والسيوطي [3].

وقد استدل أصحاب هذا القول بأدلة، منها :

1- قوله تعالى: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾ [سورة البقرة: 185]،وقوله تعالى: { إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا

(1) المصدر السابق (222/2).

(2) المصدر السابق (454/3).

(1) انظر: جامع البيان،للطبري (188/3)،الوجيز،للواحدي(ص150)،معالم التنزيل،للبغوي (198/1)،الجامع لأحكام القرآن،للقرطبي (297/2)،تفسيرالقرآنالعظيم (501/1) ،البرهان،للزركشي(228/1)،الإتقان،للسيوطي(268/1) ،واختارهمن المتأخرين: الزرقاني ، ومحمد أبو شهبة، انظر: مناهل العرفان،للزرقاني(44/1)،المدخللدراسةالقرآنالكريم،لأبي شهبة (ص51)

مُنذِرِينَ ﴾ [سورة الدخان: 3]،وقوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴾ [سورة القدر: 1]

فقد دل ظاهر هذه الآيات الثلاث أن القرآن الكريم أُنزل جملةً في ليلةٍ واحدةٍ توصف بأنها مباركة من شهر رمضان، وهذا وصف مُغاير لصفة نزول القرآن الكريم على الرسولﷺ،فتعيّن أن يكون هذا النزول نزولاً آخر غير النزول المباشر على النبي ﷺ [1] .

2- مجيء الآثار الصحيحة بتوصيف نزول القرآن، وأنه نزل جُملة إلى بيت العزة في السماء الدنيا منها :

أ- عن عكرمة ﷺ عن ابن عباسﷺ قال:" أُنزل القرآن جملة واحدة إلى السماء الدنيا في ليلة القدر، ثم أُنزل بعد ذلك في عشرين سنة، قال:﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ [سورة الفرقان: 33]، وقرأ: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴾[سورة الإسراء:106[2]"

ب- عن سعيد بن جبير ﷺ عن ابن عباسﷺ قال:" نزل القرآن في ليلة القدر من السماء العليا إلى السماء الدنيا جُملة واحدة، ثم فُرق في السنين بعد، قال:وتلا ابن عباس ﷺ هذه الآية:﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴾ [سورة الواقعة: 75]،قال:نزل متفرقا.[3]"

---

(2) نزول القرآن الكريم ، لمحمد الشايع)

(1) أخرجه النسائي في السنن الكبرى، كتاب التفسير، سورة الفرقان (205/10)(11308)، والحاكم في المستدرك ، مقدمة كتاب التفسير(242/2)(2879) وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد،ولم يخرجاه»، والطبري في جامع البيان (115/15) ،وقالابنكثيرفيفضائلالقرآن (ص36): "هذا إسناد صحيح"،وأخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن (ص367) واللفظ له .

(2) أخرجه الحاكم في المستدرك، كتاب التفسير، سورة الواقعة(519/2)(3781) وقال: " هذا حديث صحيح

=

ج-عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ﴾ [سورة القدر: 1]،قال:" أُنزل القرآن جُملة واحدة في ليلة القدر إلى السماء الدنيا، وكان بموقع النجوم وكان الله ينزله على رسوله ﷺبعضه في إثر بعض، وقرأ: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ﴾[سورة الفرقان: 32]" [1] .

د- عن ابن عباس قال:" أُنزل جُملة إلى السماء الدنيا في شهر رمضان ثم نزل نجوماً" [2].

فهذه الآثار عن ابن عباس والتي رواها عنه كبار أصحابه ، وأخرجها الأئمة وصححوا بعضها، يعضد بعضها بعضاً، وهي وإن كانت موقوفة عن ابن عباس إلا أن لها حكم الرفع إلىالنبيﷺ؛ لأن قول الصحابي الذي لا يأخذ عن الإسرائيليات فيما لا مجال للرأي فيه له حكم المرفوع إلى النبيﷺ [3] .

على شرط الشيخين ولم يخرجاه "، والطبري في جامع البيان (191/3 .(

(3) أخرجه النسائي في السنن الكبرى، كتاب التفسير،سورة القدر (341/10)(11652)، والطبري في جامع البيان(532/24)،والحاكمفيالمستدرك،كتابالتفسير،مقدمةكتابالتفسير(242/2)(2878) وقال: «هذا حديث صحيح على شرطهما،ولم يخرجاه .«

(1) أخرجه الطبراني في الأوسط (131/2)(1479)، وفي الكبير (312/11)(11839 .(

قال الهيثمي في مجمع الزوائد (140/7): " رواه الطبراني في الأوسط والكبير وفيه عمران القطان ، وثقه ابن حبان وغيره ، وفيه ضعف ، وبقية رجاله ثقات"، وقال السيوطي في الإتقان(270/1): "إسناده لا بأس به ."

(2) انظر: مناهل العرفان،للزرقاني (45/1)، المدخل لدراسة القرآن الكريم،لأبي شهبة (ص52)، نزول القرآن الكريم،لمحمد الشايع (ص21)، المقدمات الأساسية في علوم القرآن،لعبدالله الجديع (37 .(

ونوقش هذا القول: بأن فيه إيهاماً بأن جبريل أخذ القرآن من اللوح المحفوظ، ولم يأخذه من اللهﷻمباشرة، ويوهم أيضا بأن الله سبحانه وتعالى لم يتكلم بالقرآن حين إنزاله على الرسول ﷺ، وهذا خلاف عقيدة أهل السنة والجماعة بأن الله تكلم به حقيقة وأن جبريلعليه السلامأخذه من الله مباشرة .

ويُجاب عنه:بأن الآثار الصحيحة الواردة عن ابن عباسرضي الله عنه، لم تُثبت الواسطة بين الله وجبريلعليه السلام [1]، وما كان في بعض الآثار إجمال فقد بُيّن في الموضع الآخر، ثم إنه ليس فيه ما يدل على أن الله لم يتكلم بالقرآن حال إنزاله ، بل غاية ما فيه أن للقرآن انزالين:

الأول:من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا.

وحقيقة هذا الإنزال أنه إنزال كتابي، إذ هو إنزال من مكتوب إلى مكتوب فلا إشكال فيه، ولا فرق بين أن يكون في اللوح المحفوظ أو أن يكون في السماء الدنيا ثم يتكلم به اللهﷻإذا أراد إنزاله .

الثاني:الوحي.

(1) مجموع فتاوى،لابن تيمية (126/12).

وهو إنزاله إلى محمدﷺبواسطة جبريلعليه السلام كما قال ابن عباسرضي الله عنه في إحدى روايات نزول القرآن جملة إلى بيت العزة في السماء الدنيا:" وكان الله ينزله على رسولهﷺبعضه إثر بعض "[1]، فدل هذا الأثر على أن الله تعالى يتكلم به حقيقة إنزاله [2].

قال ابن تيمية –رحمه الله– بعد كلام طويل في إثبات أن القرآن منزل من الله .. .." :رحمه الله وهذا لا ينافي ما جاء عن ابن عباسرضي الله عنه وغيره من السلف في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾ [سورة القدر: 1]،أنه أنزله إلى بيت العزة في السماء الدنيا ، ثم أنزله بعد ذلك منجّماً مفرقاً بحسب الحوادث .

و لا ينافي أنه مكتوب في اللوح المحفوظ قبل نزوله كما قال تعالى:﴿بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ٢١ فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ﴾ [سورة البروج: 21-22]، وقال تعالى:﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ٧٧ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾ [سورة الواقعة: 77-79]،وقال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ١٢ فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ ١٣ مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ ١٤ بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ﴾ [سورة عبس: 11-15]،وقال تعالى:﴿وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [سورة الزخرف: 4] .

فإن كونه مكتوباً في اللوح المحفوظ، وفي صحف مطهرة بأيدي الملائكة لا ينافي أن يكون جبريلعليه السلام نزل به من الله، سواء كتبه الله قبل أن يُرسل به جبريلعليه السلام،أو بعد

(1) سبق تخريجه.

(2) جهود الشيخ ابن عثيمين وأرآؤه في التفسير وعلوم القرآن (ص618).

ذلك، وإذا كان قد أنزله مكتوباً إلى بيت العزة جملة واحدة في ليلة القدر فقد كتبه كله قبل أن ينزله)"[1].

القول الثاني:أن للقرآن نزولاً واحداً، هو النزول المنجّم على النبيﷺ،وأنه ابتدئ انزاله في ليلة القدر وهي الليلة المباركة من شهر رمضان ، وبه قال الشعبي[2]وغيره [3].

قال الضمدي عند تفسير قوله تعالى:﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [سورة البقرة: 185]: " ومعنى إنزال القرآن فيه إنزال أول شيء منه، كما تقول:دخل الجيش يوم الأحد، ولو لم يدخل آخرهم إلا اليوم السابع" [4].

(1) مجموع فتاوى،لابن تيمية (12/126-127).

(2) هو: عامر بن شراحيل،ويكنى: أبو عمرو،أكبر شيوخ أبي حنيفة،وأحد المشهود لهم بالإمامة في الحديث والفقه. روى عن علي بن أبي طالب،وسعد بن أبي وقاص،وزيد بن ثابت، وجابر بن عبد الله،وغيرهم. وقال: إنه أدرك خمسمائة من الصحابة. وروى عنه الأعمش،وقتادة،وأبو الزناد،وغيرهم. توفي سنة 109هـ. انظر: سير أعلام النبلاء(4/294)، تهذيب التهذيب(2/264).

(3) انظر: النكت والعيون،للماوردي (6/ 312)، البرهان،للزركشي (1/321-322)، الإتقان،للسيوطي (1/273) ،ومن المتأخرين: محمد عبده، ومحمد رشيد رضا، وصبحي الصالح، وابن عثيمين ، انظر: تفسير جزء عم،لمحمد عبده (ص128)، تفسير المنار (2/128)، مباحث في علوم القرآن (ص50)، تفسير القرآن الكريم –تفسير سورة البقرة(2/333 .(

(4) الفرات النمير (1/178).

وأصحاب هذا القول ينفون نزول القرآن جملة واحدة إلى بيت العزة من السماء الدنيا.

وقد استدل أصحاب هذا القول بأدلة منها:

1- تصريح القرآن بنزوله منجّماً في أكثر من موضع، منها قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا﴾ [سورة الفرقان: 32] ،وقال تعالى: ﴿وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا﴾ [سورة الإسراء: 106].

2- الواقع الفعلي لنزول القرآن على النبيﷺمنجماً، فسيرته عليه الصلاة والسلام مليئة بالأدلة على نزول الآيات تلو الآيات بحسب الوقائع والأحداث[1]، إما إجابةً لسؤال،أو بياناً لحكم.

3- أن المراد بقوله: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾[سورة البقرة: 185]،وقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾ [سورة القدر: 1]:ابتداء نزوله في ليلة القدر في شهر رمضان، وذلك جمعاً بين معنى هذه الآيات والآيات التي صرّحت بجلاء بنزول القرآن منجّماً[2].

ويُناقش بما يلي:

(2) نزول القرآن الكريم ،لمحمد الشايع (ص24 .(

(1) مباحث في علوم القرآن،لصبحي الصالح (ص50) ،نزول القرآن ،لمحمد الشايع (ص24)

1- أنه لا يلزم من إثبات نزول القرآن منجماً نفي نزوله جملة بل يمكن الجمع بينهما كما ثبت في الآثار الصحيحة ، فلا تعارض بين النزولين وكلاهما ثابتان .

2- أن القول بأن المراد بالنزول في الآيات هو ابتداء النزول، هو من صرف اللفظ عن ظاهره من غير دليل، وهو يقتضي حمل القرآن على أن المراد به بعض أجزائه وأقسامه فقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾ [سورة القدر: 1]، أي:أنزلنا بعضه،لا سيما وقد ثبت النزول الجملي في غير هذه الآيات كآثار ابن عباسﷺ،وإرادة الجمع تكون بإثبات النزولين [1].

3- أن الشعبي لم ينفِ النزول الجُملي، حيث أورد ابن جرير الطبري بإسناده عن الشعبي قوله: " بلغنا أن القرآن نزل جملة واحدة إلى السماء الدنيا "[2]، وإنما حمل الآيات الثلاث على معنى ابتداء النزول.

وفي مسألة كيفية نزول القرآن الكريم قول ثالث لم يذكره الضمدي وهو:

أن القرآن أُنزل إلى السماء الدنيا في عشرين ليلة قدر، في كل ليلة قدر ينزل ما يُقدّر الله إنزاله في كل السنة، ثم نزل بعد ذلك على النبي مُنجّماً مدة بعثتهﷺ،وممن قال بهذا القول:ابن جريج[3]،ومقاتل[4]،والحَلِيمي [1] .

(1) انظر: المدخل لدراسة القرآن الكريم ، لأبي شهبة (ص50)، نزول القرآن الكريم ،لمحمد الشايع (ص34)

(3) جامع البيان،للطبري (191/3)، (242/24)

)3 (انظر: جامع البيان،للطبري (3/ 447) ،وابنجريجهو: أبو الوليد،عبدالملك بن عبدالعزيز بن جريج الأموي، الإمام الحافظ فقيه الحرم،ثقةفاضل ، صاحب التصانيف، أدرك صغار الصحابة لكنه لم يحفظ عنهم ، توفي سنة 105هـ، انظر: تذكرة الحفاظ، للذهبي (127/1-128)،تقريبالتهذيب، لابن حجر (ص363 .(

)4 (أشار إليه الزركشي في البرهان (229/1) ، ومقاتل هو: أبو الحسن مقاتل بن سليمان بن كثير الأزدي بالولاء،البلخي، من أعلام المفسرين ، نزيل مرو ، قال عنه الذهبي: "وهو متروك الحديث ، مع أنه كان من

=

قال القرطبي:" قلت:وقول مقاتل هذا خلاف ما نقل من الإجماع ؛ أن القرآن أنزل جملة واحدة "[2]، ودعوى القرطبي للإجماع في هذه المسألة غير مسلَّمة للخلاف الوارد فيها ، قال ابن حجر:" ووقع في المنهاج للحَلِيمي، أن جبريلﷺكان ينزل من اللوح المحفوظ في ليلة القدر إلى السماء الدنيا.. .. .،وهذا أورده ابن الأنباري[3] من طريق ضعيفة ومنقطعة أيضاً."

وخلاصة هذه المسألة والراجح فيها:أن القول الأول وهو أن القرآن نزل جملة واحدة إلى السماء الدنيا ليلة القدر من شهر رمضان ثم نزوله منجماً على الرسولﷺهو أرجح الأقوال وأقواها، وذلك لدلالة ظاهر الآيات التي ورد فيها لفظ الإنزال ، ولصريح الآثار الواردة عن ابن عباسﷺوالتي لها حكم الرفع إلى الرسولﷺ[4] .

أوعية العلم،بحراً في التفسير "،من مصنفاته: الوجوه والنظائر ، متشابه القرآن ،توفي سنة 150 هـ ، انظر: تذكرة الحفاظ،للذهبي (131/1) ،طبقاتالمفسرينللداوودي (2/ 330-331 .(

)1 (انظر: البرهان للزركشي (229/1) ، المنهاج في شعب الإيمان للحليمي (2/ 235)،والحليمي هو: أبو عبدالله، الحسين بن الحسن بن محمد بن حليم البخاري الجرجاني ، فقيه شافعي ، له مصنفات مفيده منها: المنهاج في شعب الإيمان ، توفي سنة 403هـ ،انظر: طبقات الشافعية،للسبكي (4/333-334) ، طبقات الشافعيين،لابن كثير (350/1 .(

(2) الجامع لأحكام القرآن،للقرطبي (298/2).

)3 (وهو: أبو بكر محمد بن القاسم بن محمد بن بشار الأنباري ، من أعلم أهل زمانة باللغة والأدب ، من مصنفاته: الزاهر ، عجائب علوم القرآن،توفي سنة 327هـ أو 328هـ ،انظر: طبقات النحويين واللغويين،للزبيدي (153-154)،طبقاتالمفسرين،للداوودي (2/228-231 .(

)4 (نزول القرآن الكريم ،لمحمد الشايع (ص34 .(

ثانياً:أول ما نزل وآخر ما نزل من القرآن الكريم:

المدار في البحث في أول ما نزل من القرآن الكريم وآخر ما نزل على النقل عن الصحابة و التابعين، ولا مجال للعقل فيه إلا بالترجيح بين الأدلة، أو الجمع بينها فيما ظاهره التعارض منها، وشأنه في ذلك شأن كثير من مباحث علوم القرآن، كمعرفة المكي والمدني، وأسباب النزول، والناسخ والمنسوخ، وتكمن أهمية العلم بأول ما نزل وآخر ما نزل في عدة أمور منها :

1- معرفة الناسخ والمنسوخ: فيما إذا وردت آيتان أو أكثر في موضوع واحد، وحكم إحداهما يغاير الأخرى تغايراً لا يمكن معه الجمع، فنعرف أن المتأخر منها ناسخ للمتقدم .

2- معرفة تاريخ التشريع الإسلامي وتدرجه، وحكمة القرآن العظيم في تربية الناس وأخذهم بالرفق .

3- معرفة الوحدة الموضوعية للقرآن الكريم، عن طريق ربط أول ما نزل منه بآخره [1].

وقد تعددت أقوال أهل العلم في أول ما نزل وآخر ما نزل من القرآن الكريم، فذكر الضمدي بعض هذه الأقوال في تفسيره .

مسألة:القول في أول ما نزل من القرآن الكريم:

)1(انظر: المدخل إلى دراسة القرآن الكريم ، لأبي شهبة (ص109)،دراسات في علوم القرآن،لمحمد بكر إسماعيل(ص34 .(

القول الأول:أن أول ما نزل من القرآن الكريم أول خمس آيات من سورة العلق ، وهو ما ذهب إليه جمهور أهل العلم من الصحابة والتابعين ومن بعدهم، وهو مروي عن علي، وابن عباس،وعائشة، وابن الزبيرﷺ،ومجاهد وعطاء بن يسار[1].

وهذا القول هو الذي اختاره الضمدي–رحمه الله– ، حيث قال: عند تفسير أول سورة العلق بعد أن ذكر حديث عائشةﷺفي بدء الوحي:" وهذا الحديث صريح في أن هذه الآيات أول ما نزل" [2].

وكذلك أيضاً عند تفسير سورة المدثر، بعد أن ذكر سبب نزولها قال:" كان جابرﷺيرى أن هذه السورة أول ما نزل، والصحيح أن أول ما نزل أول سورة اقرأ" [3].

واختار هذا القول من المفسرين:السمعاني[4]،والزركشي ،والسيوطي ، وابن كثير [5].

واستدلوا على هذا القول بأحاديث وردت عن الصحابة منها ما أورده الضمدي في قالت:" إن أول ما ﷺتفسيره حيث قال:" روى الشيخان في صحيحهما عن عائشة

)1 (انظر: تفسير السمعاني (255/6)، جامع البيان ، للطبري (521/24). وعطاء هو: أبو محمد عطاء بن يسار المدني، مولى ميمونة أم المؤمنين،كان ثقة جليل القدر، روى عن أبي سعيد وعن أبي هريرة،توفي سنة103هـ. انظر: الثقات لابن حبان (199/5) ، تهذيب التهذيب،لابن حجر (217/7-218 .(

(2) الفرات النمير(450/3).

(3) المصدر السابق(357/3).

)4 (هو أبو المظفر، منصور بن محمد بن عبدالجبار السمعاني الحنفي ثم الشافعي ،الإمام العلامة، مفتي خراسان، من أعلام أهل السنة في عصره، من مصنفاته: (التفسير)، (منهاج أهل السنة)،توفي سنة 489هـ. انظر: طبقات الشافعية،للسبكي (335/5)، طبقات المفسرين،للداوودي (339/2 .(

)5 (انظر: تفسير السمعاني (255/6)، البرهان،للزركشي (284/1) ،الإتقان،للسيوطي (158/1)،،تفسيرالقرآنالعظيم،لابن كثير (436/8 .(

من الوحي الرؤيا الصالحة، وحبب إليه الخلاء، فكان يخلو بغار ﷺبدئ به رسول الله حراء، فجاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك، قال:فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال:اقرأ، فقلت:ما أنا بقارئ، فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال:اقرأ، فقلت:ما أنا بقارئ، فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣﴾ حتى بلغ ﴿مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥﴾

يرجف فؤاده، فدخل على خديجة،فقال:زملوني زملوني، فزملوه ﷺ،فرجع بها رسول الله [1] "حتى ذهب عنه الروع

ومن الآثار الصحيحة أيضاً:

1- حديث عائشةﷺقالت:" إن أول شيء أنزل من القرآن ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ [سورة العلق: 1][2]، فهذا الحديث صريح في بيان أول ما نزل من القرآن [3].

2- ما رواه أبو رجاء العطاردي[4]قال:" كان أبو موسى يُقرئنا، فيجلسنا حلقاً، عليه ثوبان أبيضان، فإذا تلا هذه السورة: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ [سورة العلق: 1]،قال: " هذه أول سورة أنزلت على محمد"ﷺ[1].

)1 (أخرجه البخاري، كتاب التعبير، باب أول ما بدء به رسول اللهمن الوحي الرؤيا الصالحة (29/9) (6982)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله .(160)(1/139)

)2(أخرجه الحاكم في المستدرك ، كتاب التفسير، باب تفسير سورة اقرأ (240/2)(2874) ، قال الحاكم: " إسناده صحيح على شرط مسلم ، والبيهقي في الدلائل (155/2) وقال: " هذا إسناد صحيح"، والطبري في جامع البيان،للطبري (521/24 .(

(3) انظر: البرهان،للزركشي(293/1).

)4 (هو أبو رجاء عمران بن ملحان العطاردي التميمي،البصري، ويقال: عمران بن تيم، شيخ الإسلام ، من كبار المخضرمين أسلم بعد فتح مكة ولم يرَ النبيتوفي سنة107هـ. انظر: الجرح والتعديل،لابن أبي حاتم

=

القول الثاني:أن أول ما نزل قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ۝٤ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ﴾[سورة المدثر: 1-5] وهو مروي عن جابر ﷺ [2].

والدليل ذكره الضمدي في تفسيره من حديث جابر ﷺقال:قال رسول الله ":ﷺجاورت بحراء، فلمّا قضيت جواري هبطت،فنوديت فنظرت فلم أجد شيئاً، فرفعت رأسي فرأيت شيئا ، فأتيت خديجة فقلت:دثروني ، وصبوا عليّ ماءًا بارداً"؛ فنزلت { يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ }[3] "[4].وقد جمع أهل العلم بين حديث جابر ﷺوحديث عائشة ﷺالذي يدل على أن أول ما نزل من القرآن:{ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ} بأن سورة اقرأ أول ما نزل من القرآن حين بدئ بالوحي، وسورة المدثر أول مانزل بعد فتور الوحي [5].

(304/6)، سير أعلام النبلاء (235/4 .(

1) (أخرجه الحاكم في المستدرك ، كتاب التفسير (240/2)(2872)، وقال: " هذا حديث صحيح على شرط الشيخين،ولم يخرجاه،وله شاهد بإسناد صحيح على شرط مسلم ."

2) (انظر: تفسير السمعاني(87/6)، الإتقان،للسيوطي (161/1 .(

3) (أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب التفسير ، باب{ههههههههه}، (161/1)(4922 .(

(4) الفرات النمير (357/3).

5) (تفسير السمعاني (87/6) ، التحرير والتنوير،لابن عاشور(434/30 .(

قال الضمدي:" كان جابر يرى أن هذه السورة أول ما نزل ، والصحيح أن أول ما نزل أول سورة اقرأ، وأما قوله" :ﷺفنزلت{يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ}"فمحتمل أنها نزلت بعد مدة قريبة يتصور فيها نزول تلك السورة ووقوع تلك الحادثة" [1].

وقال النووي[2]:" والصواب أن أول ما أنزل على الإطلاق {ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ}كما صُرّح به في حديث عائشةﷺ،وأما {يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ} فكان نزولها بعد فترة الوحي" [3].

وقد نوقش حديث جابرﷺبعدة أجوبة منها:

أ- أن السؤال كان عن نزول سورة كاملة ، فبين جابرﷺأن سورة المدثر نزلت بكاملها قبل تمام سورة العلق فإنها أول ما نزل منها صدرها،يؤيد هذا الجواب ما في الصحيحين عن أبي سلمةﷺ [4] عن جابرﷺقال:قال رسول اللهﷺوهو يحدث عن فترة الوحي ، قال في حديثه:" فبينما أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء، فرفعت رأسي ، فإذا بالملك الذي جاءني بحراء جالسا على كرسي بين السماء والأرض،فجُئِثْت منه فرقاً،فرجعت فقلت:زملوني زملوني،فدثروني، فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ

(1) الفرات النمير (357/3).

)2 (هو محيي الدين أبو زكريا ، يحيى بن شرف بن مري النووي الدمشقي الشافعي ،العلامة ، شيخ المذهب ، وكبير الفقهاء في زمانه ، صاحب التصانيف النافعة مثل: (رياض الصالحين)،(منهاج الطالبين) توفي سنة 676هـ ، انظر: تذكرة الحفاظ (174/4) ، طبقات الشافعية للسبكي(395/8-400 .(

(3)المنهاج شرح النووي على مسلم (207/2).

)4 (هو: أبو سلمة بن عبدالرحمن بن عوف الزهري القرشي الحافظ ، قيل اسمه عبدالله وقيل إسماعيل ، من أعلام المدينة توفي سنة 105هـ. انظر: الثقات،لابن حبان (1/5) ، سير أعلام النبلاء،للذهبي (287/4 .(

﴿٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ [سورة المدثر: 1-5]،ثم تتابع الوحي" (1)

فقوله:" الملك الذي جاءني بحراء " يدل على أن القصة متأخرة عن قصة حراء التي نزل فيها{اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ}، وقد حَسَّن هذا الجواب السيوطي (2).

ب- أن مراد جابرﷺبالأولية هنا:أوّلية مخصوصة بما بعد فترة الوحي لا أولية مطلقة،ويؤيده حديث جابرﷺالسابق وفيه:" قال رسول اللهﷺوهو يحدّث عن فترة الوحي "،وكذلك قوله:" ثم تتابع الوحي " أي:بعد فترته ، واختار هذا الجواب السمعاني والنووي وغيرهما (3).

ج- أن المراد به أول ما نزل بسبب متقدم،وهو ما وقع من التدثر الناشئ عن الرعب، وأمّا (اقرأ) فنزلت ابتداء بغير سبب متقدم، وقد استبعد هذا الجواب ابن حجر(4) .

وفي هذه المسألة أيضاً قولان آخران لم يذكرهما الضمدي اختصاراً وهما:قولان ضعيفان أذكرهما وأذكر بيان ضعفها:

أحدهما:أن أول ما نزل من القرآن سورة الفاتحة:

1) (أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب بدء الوحي ، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله (4)(1/7) ، ومسلمفيصحيحه، كتابالإيمان، باببدءالوحيإلىرسولالله (161)(1/143) واللفظلمسلم

(2) الإتقان،للسيوطي (1/ 162).

3) (تفسير السمعاني (6 / 87) ، المنهاج شرح صحيح مسلم،للنووي (375/2 .(

4) (فتح الباري،لابن حجر (678/8) ، الإتقان،للسيوطي (162/1 .(

ودليل هذا القول:عن أبي ميسرة ":ﷺأن رسول اللهﷺكان إذا برز سمع منادياً يناديه:يا محمد، فإذا سمع الصوت انطلق هارباً، فقال له ورقة بن نوفل:إذا سمعت النداء فاثبت حتى تسمع ما يقول لك، قال:فلما برز سمع النداء:يا محمد، فقال:لبيك ، قال:قل:أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، ثم قال:قل:﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾[سورة الفاتحة: 1-4]حتى فرغ من فاتحة الكتاب" [1].

قال الزمخشري:" وأكثر المفسرين على أن الفاتحة أول ما نزل "[2].

ورَدَّ ابن حجر هذا القول مؤكداً أن ما ذهب إليه أكثر الأئمة هو الأول وأن ما نسب إلى أكثر المفسرين لم يقل به إلا عدد أقل من القليل[3].

وقد نوقش هذا القول بأجوبة ، منها :

أ- أن حديث أبي ميسرة مرسل منقطع[4]كما حكم عليه الأئمة، فلا يقوى على مناهضة حديث عائشةﷺالمتفق على صحته [5].

قال ابن كثير:" وهو مرسل ، وفيه غرابة وهو كون الفاتحة أول ما نزل" [1].

)1 (أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ، كتاب المغازي ، باب ماجاء في مبعث النبي (36555) (7/329) ، والبيهقيفيالدلائل (158/2) وحكمبانقطاعه،والسيوطي في الدر المنثور (6/1 .(

(2) الكشاف(775/4).

(3) فتح الباري (714/8).

(4) الانتصار،للباقلاني (241/1).

)5 (دراسات في علوم القرآن ، لفهد الرومي (ص231 .(

ب- أن هذا الحديث لا يدل على أن الفاتحة كانت أول ما نزل بل فيه دلالة على أن جبريلﷺخاطب الرسولﷺغير مرة، وليس فيه نفي بنزول شيء من القرآن في بعضها،فلا يصح الاستدلال بهذا على الأولية [2].

والقول الثاني:أن أول ما نزل{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ }:

وأدلة هذا القول:

1- ما أخرجه الواحدي بإسناده عن عكرمة والحسن أنهما قالا:" أول ما أنزل الله تعالى من القرآن{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ " { [3].

ونوقش:بأن الأثر عن عكرمة والحسن مرسل[4]، فهو ضعيف لا يحتج به.

2- ما أخرجه ابن جرير عن ابن عباسﷺقال:"أول ما نزل جبريل على محمد قال:" يا محمد استعذ ، قل:أستعيذ بالسميع العليم من الشيطان الرجيم "،ثم قال: "قل {بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ }"،ثم قال: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ}، قال عبدالله:" وهي أول سورة أنزلها الله على محمدﷺبلسان جبريل" [5].

ونوقش هذا:بأن إسناد الأثر عن ابن عباسﷺفيه ضعف وانقطاع ، قال ابن كثير:" وهذا الأثر غريب، وإنما ذكرناه ليُعرف؛ فإن في إسناده ضعفاً وانقطاعاً والله أعلم" [6]

---

(1) البداية والنهاية،لابن كثير (15/3)

(2)دراسات في علوم القرآن،لفهد الرومي (ص213).

)3 (أسباب النزول، للواحدي (ص11) ، من طريق يزيد النحوي .

)4(قال ابن حجر: " وهذا مرسل"، العجاب في بيان الأسباب (223/1 .(

)5(جامع البيان،للطبري(113/1) من طريق بشر بن عمارة عن أبي روق عن الضحاك عن ابن عباس،وتفسير القرآن العظيم،لابن كثير (113/1 .(

(6) تفسير القرآن العظيم،لابن كثير(113/1).

وقد أجاب السيوطي عن القول بأن{بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ } أول ما نزل،فقال:"وعندي أن هذا لا يعد قولاً برأسه،فإن من ضرورة نزول السورة نزول البسملة معها،فهي أول آية نزلت على الإطلاق"[1].

وهذا الجواب غير مُسلَّم فالأحاديث الصحيحة في بدء الوحي كحديث عائشةﷺوغيره لم تذكر قط نزول البسملة مع صدرها،والظاهر أنها نزلت بعدُ عند نزول تمام السورة [2].

والراجح في هذه المسألة: وهو قول بعض الصحابة وعليه أكثر العلماء سلفاً وخلفاً، واختاره الضمدي هو: أن أول ما نزل من القرآن، هي: أول خمس آيات من سورة العلق ، وقد رُجِّح هذا القول لقوة أدلته صحة واستدلالاً .

مسألة:القول في آخر ما نزل من القرآن:

اختلف العلماء في تعيين آخر ما نزل من القرآن على الإطلاق واستند كل منهم بآثار ليس فيها حديث مرفوع إلى النبي ﷺ، وإنما هي آثار مروية عن بعض الصحابة،والتابعين،استنتجوها مما شاهدوه من نزول الوحي،وملابسات الأحوال،لذلك كثر الاختلاف بين السلف في آخر ما نزل وتعددت الأقوال وتشعبت الآراء[3]، إلا

(1) الإتقان،للسيوطي(165/1).
)2 (المدخل لدراسة القرآن الكريم ،لأبي شهبة (ص116 .(
)3 (مناهل العرفان،للزرقاني (96/1)، المدخل لدراسة القرآن الكريم،لأبو شهبة (ص117 .(

أن الضمدي—رحمه الله– لم يذكر من هذه الأقوال إلا قولاً واحداً في تعيين آخر ما نزل من القرآن الكريم وهو:

أن آخر سورة نزلت سورة التوبة،وآخر آية نزلت آية الكلالة، حيث قال في آخر تفسير سورة التوبة:" وفي الصحيح المتفق عليه عن البراء بن عازبﷺقال:" إن آخر سورة نزلت تامة سورة التوبة، وإن آخر آية نزلت آية الكلالة" وفي رواية:" آخر آية نزلت كاملة" (1) (2).

أولاً:آخر سورة نزلت من القرآن:

ذكر الضمدي أن آخر سورة نزلت من القرآن هي سورة التوبة، وقد قال بهذا من الصحابة البراء بن عازبﷺفي الحديث السابق ، وابن عباس وأُبي بن كعبﷺ (3)،ومن التابعين علي بن الحسين (4).

ويجاب عن هذا بأن آخرية سورة براءة آخرية مقيدة،فالمراد آخر ما نزل في شأن القتال والجهاد،أو أن في الكلام تقديراً؛ أي من أواخر السور نزولاً سورة براءة.

---

1) (أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب المغازي، باب حج أبي بكر بالناس في سنة تسع (167/5) (4364)، ومسلم في صحيحه، كتاب الفرائض، باب آخر آية أنزلت آية الكلالة (1237/3)(1618) .).

(2) الفرات النمير (36/2).

3) (المسند،لأبي سعيد الشاشي (310/3)، والحديث عن ابن عباس و أبي بن كعبقالا: "آخر سورة نزلت براءة ."

(4) أسباب النزول،للواحدي (ص106) والحديث عن علي بن الحسين قال: " آخر سورة نزلت في المدينة: براءة ".

وفي المسألة أيضاً قولان آخران وهما:

الأول:أن آخر سورة نزلت هي سورة النصر، ثبت ذلك عن ابن عباسﷺفي رواية عنه واختاره ابن تيمية [1].

فعن عبيد الله بن عبدالله بن عتبةﷺقال:قال لي ابن عباس" :ﷺتعلم – وقال هارون:تدري – آخر سورة نزلت من القرآن،نزلت جميعاً؟ قلت:«نعم،إذا جاء نصر الله والفتح»،قال:صدقت »[2]، ففي هذا الحديث تصريح من ابن عباسﷺبآخرية نزول سورة النصر وقد نزلت كاملة بخلاف ما ذكر عن سورة براءة أو المائدة فلم تنزلا كاملة جملة واحدة، وبهذا يصح أن يطلق على سورة النصر أنها آخر سورة نزلت على الإطلاق [3].

أيضاً حديث ابن عباسﷺحيث قال:كان عمرﷺيدخلني مع أشياخ بدر، فقال بعضهم:لمَ تُدخل هذا الفتى معنا، ولنا أبناء مثله ، فدعاني يوماًليريهم، فقال:ما تقولون في قوله تعالى: ﴿ إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ﴾ [سورة النصر: 1]،فقال بعضهم:أمرنا أن نحمده ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا ، وسكت بعضهم ، فقال لي:أكذا تقوليابنعباس، قلت:لا، قال:فما تقول ؟ قلت:هو أجل رسول اللهﷺأعلمه،

)1(التدمرية، لابن تيمية (ص228 .(

)2 (أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب التفسير، أول كتاب التفسير (2318/4)(3024 .(

)3 (علوم القرآن عند أبي المظفر السمعاني،لغانم الغانم (ص226 .(

فقال:{إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ} فذلك علامة أجلك؛ فسبح بحمد ربك واستغفره، فقال عمر:ما أعلم منها إلا ما تقول" [1].

وهذا الحديث يدل على آخرية هذه السورة لبيان قرب أجل النبيﷺ،وقد ذكر الضمدي هذا الأثر عند تفسيره سورة النصر، إلا أنه لم يصرح فيه بآخرية نزول سورة النصر .

وقد أجيب عن قول ابن عباسﷺفي آخرية سورة النصر وكذلك قول البراء بن عازبﷺفي آخرية سورة التوبة بأنهما لم ينقلاه وإنما ذكراه عن اجتهاد، قال العيني: " لا محل للاجتهاد في مثل ذلك على ما لا يخفى على المتأمل" [2].

القول الثاني:أن آخر سورة نزلت سورة المائدة ،وورد هذا عن عائشة وعبدالله بن عمروﷺواختاره الطحاوي [3].

فعن جبير بن نفيرﷺ،قال:" دخلت على عائشةﷺفقالت:" هل تقرأ سورة المائدة ؟ فقلت:نعم، قالت:"فإنها آخر سورة نزلت ، فما وجدتم فيها من حلال فاستحلوه وما وجدتم فيها من حرام فحرموه" [4].

---

1) (أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن ، باب قوله تعالى: {ﭽﭾﭿﮀﮁﮂﮃﮄﮅﮆﮇ} [سورة النصر: 3]،(179/6)(4970) .

2) (عمدة القاري شرح صحيح البخاري ، للعيني (259/18 .

(3) شرح مشكل الآثار للطحاوي (306/6).

4) (أخرجه الحاكم في مستدركه، كتاب التفسير ، باب تفسير سورة المائدة (370/2)(3270) ، وقال: " هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ."

وعن عبدالله بن عمروﷺقال:" آخر سورة نزلت سورة المائدة" [1].

وأجيب عن هذا القول بأن آخرية سورة المائدة آخرية مقيدة وأن المراد أنه آخر سورة نزلت في الحلال والحرام فلم تُنسخ فيها أحكام وسياق حديث عائشةﷺيدل على ذلك [2].

وقد ناقش الباقلاني الأقوال في مسألة آخر ما نزل فقال:"وليس في شيء من الروايات ما رُفع إلى النبيﷺو إنما هو خبر عن القائل به ، وقد يجوز أن يكون ما قاله بضرب من الاجتهاد وتغليب الظن وبظاهر حال، وقد يحتمل أن يكون كل قائل ممن ذكرنا يقول:إن ما حكم بأن ما ذكره آخر ما نزل لأجل أنه آخر ما سمعه من رسول اللهﷺ،وقد سمع منه غيره شيئاً نزل بعد ذلك وإن لم يسمعه هو لمفارقته له ، ونزول الوحي بقرآن بعده" [3].

لذلك يتبين أن القول بأن سورة النصر آخر ما نزل من القرآن هو أقرب الأقوال لقوة أدلته ولدلالته على دنو أجل النبي ﷺ.

ثانياً:آخر آية نزلت من القرآن:

)1 (أخرجه الحاكم في مستدركه، كتاب التفسير ، تفسير سورة المائدة (370/2)(3271)، وقال: " هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ."

)2 (مناهل العرفان،للزرقاني (83/1) ، المدخل لدراسة القرآن الكريم ،لأبو شهبة (ص114 .(

)3 (الانتصار للقرآن،للباقلاني(262/1)، البرهان،للزركشي (210/1 .(

ذكر الضمدي أن آخر آية نزلت من القرآن الكريم هي آية الكلالة وهي قوله تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ﴾ [سورة النساء: 176]،كما ثبت ذلك عن البراء بن عازب في الحديث المتقدم، ونسب مكي هذا القول إلى أنس بن مالك ﷺ [1]،وقد أجيب عن هذا:

أ- بحمل الآية على أنها آخر ما نزل في المواريث،فآخريتها مقيدة .

ب- أنها من آخر ما نزل،ودليل ذلك ما جاء عن عمر ﷺ أنه كان يكثر من سؤال النبي ﷺ عن الكلالة فكان جوابه ":ﷺيا عمر ألا تكفيك آية الصيف التي في آخر سورة النساء" [2].

وفي المسألة أقوال كثيرة من أشهرها:

1- أن آخر آية نزلت آية الربا، وهي قوله تعالى:﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [سورة البقرة: 278].

ورد ذلك عن ابن عباس ﷺ في رواية عنه [3].

(1) الهداية إلى بلوغ النهاية،لمكي بن طالب (1545/2).

)2 (أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب الفرائض ، باب ميراث الكلالة(3/ 1236) (1617 .(

)3 (ينظر صحيح البخاري (84/2)، فضائل القرآن لأبي عبيد (204/2 .(

2- والدليل ما أخرجه البخاري في صحيحه عن ابن عباسﷺقال:"آخر آية نزلت على النبيﷺآية الربا"[1].أن آخر آية نزلت هي قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾[سورة البقرة: 281.[

ورد ذلك عن ابن عباسﷺفي رواية أخرى عنه[2]،وأبي سعيد الخدريﷺ [3]،وعلى هذا القول أكثر أهل العلم [4].

ودليلهم:ما ورد عن ابن عباسﷺفي قوله تعالى:﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ [سورة البقرة: 281] " إنها آخر آية أنزلت على رسول الله" ﷺ[5]،قال ابن جريج:" إنما عاش بعدها سبع ليال"، وفي رواية تسع ليال)"[6].

3- أن آخر آية نزلت آية الدين وهي قوله تعالى:﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ

1) (أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير ، باب قوله تعالى: {ئېئىئىئيبج□□□□□□□□بم} [سورة البقرة: 281]،(206/3)(4454) .).

2) (جامع البيان،للطبري (68/5)،البرهان،للزركشي (299/1)،الإتقان،للسيوطي (177/1) .).

(3) تفسير القرآن العظيم،لابن كثير (721/1).

4) (انظر: المحرر الوجيز،لابن عطية (378/1)، الجامع لأحكام القرآن،للقرطبي (613/1)،التحرير والتنوير،لابن عاشور(97/3) .).

5) (أخرجه النسائي في السنن الكبرى، كتاب التفسير ، ب (40/10)(10992) ،والطبريفيجامعالبيان(40/6)،وقالالهيثميفيمجمعالزوائد (44/7-45): " رواه الطبراني بإسنادين رجال أحدهما ثقات ."

6) (فضائل القرآن،لأبي عبيد ،باب منازل القرآن بمكة والمدينةوذكر أوائله وآواخره،(205/2)(829 .).

كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟ ۚ وَلَا تَسْـَٔمُوٓا۟ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَـٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓا۟ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ وَأَشْهِدُوٓا۟ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُوا۟ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [سورة البقرة: 282].

قال بذلك سعيد بن المسيب وابن شهاب)[1].

ويمكن الجمع بين هذه الأقوال الثلاثة حيث أنها بمثابة القول الواحد،حيث أن هذه الآيات آيات متتابعة في سورة البقرة من الآية (278) إلى الآية (282 .(

ولهذا قال ابن حجر:" وطريق الجمع بين هذين القولين أن هذه الآية يعني:و**{وَاتَّقُوا يَوْمًا}** هي ختام الآيات المنزلة في الربا إذ هي معطوفة عليهن"[2].

1) (انظر: جامع البيان،للطبري(68/5)، الانتصار للقرآن،للباقلاني (262/1) ، تفسير القرآن العظيم،لابن كثير (721/1 .(

(2) فتح الباري،لابن حجر (53/8).

وقد جمع بينهما السيوطي فقال:" ولا منافاة عندي بين هذه الروايات في آية الربا ،و{ **وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا** }، وآية الدين ؛ لأن الظاهر أنها نزلت دفعة واحدة كترتيبها في المصحف ، ولأنها في قصة واحدة ، فأخبر كلٌ عن بعض ما نزل بأنه آخر وذلك صحيح)"[1].

وعليه فإن الجمع بين هذه الروايات هو المسلك الأسلم والأصوب مادام الجمع ممكناً وهو مقدم على الترجيح؛ لأن في الجمع إعمال الأدلة، وفي الترجيح إهمال لبعضها ، وبهذا يظهر أن هذه الأقوال الثلاثة قول واحد وهو القول الصحيح)[2].

ثالثاً:نزول القرآن على سبعة أحرف:

الحرف في اللغة: قال ابن فارس: " الحاء والراء والفاء ثلاثة أصول: حد الشيء،والعدول، وتقدير الشيء ."

فأما الحد فحرف كل شيء حده، كالسيف وغيره، ومنه الحرف وهو الوجه، تقول:هو من أمره على حرف واحد أي:طريقة واحدة، قال الله تعالى:﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾ [سورة الحج: 11]،أي:على وجه واحد" [(3)].

(1) الإتقان،للسيوطي (180/1).

)2 (دراسات في علوم القرآن،لفهد الرومي (237)، المنار في علوم القرآن،لمحمد علي الحسن (88 .(

(3) معجم مقاييس اللغة،لابن فارس (42/2).

والحرف من حروف الهجاء، وكل كلمة بنيت أداة عارية في الكلام لتفرقة المعاني تسمى حرفاً وإن كان بناؤها بحرفين أو أكثر، وكل كلمة تقرأ على وجوه من القرآن تسمى حرفاً، يقال:يقرأ هذا الحرف في حرف ابن مسعود أي:فيقراءته[1].وقد أشار الضمدي إلى هذا في مواضع من تفسيره مثل قوله:" قرأ ابن عباس وابن مسعودﷺومجاهد: (قالوا ما نعبدهم) وفي حرف أُبي بن كعب):ﷺمانعبدكم) أي:في قراءته" [2].

أما معنى الأحرف السبعة الواردة في حديث الرسول " :ﷺأن هذا القرآن نزل على سبعة أحرف"[3]فقد اختلف العلماء في المراد بها اختلافاً كثيراً،وكثرت الأقوال فيها كثرة ظاهرة حتى أوصلها ابن حبان إلى خمسة وثلاثين قولاً ونقلها عنه السيوطي في الإتقان[4]، ونُقل عن ابن العربي أنه قال:" لم تتعين هذه السبعة بنصٍ من النبيﷺ،ولا بإجماع من الصحابة"[5]، لذلك فهي من المسائل الكبرى والمشكلة في مسائل علوم القرآن.

وقد تبين لنا اختيار الضمدي في هذه المسألة حيث أورد قولاً واحداً في المراد بالأحرف السبعة عند حديثه عن القراءات فقال:"وقد طعن فيها بعض الجهال بعدم

(1) العين،للفراهيدي (210/3).

(2)الفرات النمير (102/3).

)3 (أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب أُنزل القرآن على سبعة أحرف (4992)(339/3)، ومسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين، باب بيان أن القرآن على سبعة أحرف وبيان معناه(818)(506/1) .(

(4) الإتقان،للسيوطي (333/1).

(5) نقله عنه الزركشي في البرهان (304/1).

موافقتها للغة قريش، وقد قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [سورة إبراهيم: 4]،والجواب:أن قومه العرب؛ بدليل ما ثبت في الحديث الصحيح المشهور:" نزل القرآن على سبعة أحرف"[1]، وفُسر الحرف باللغة، وفي ذلك تيسير لقراءته، فإن كل قبيلة يقرؤون الحرف المناسب للغتهم.

وقد قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾ [سورة القمر: 17]،قال أبو حاتم السجستاني: " نزل القرآن بلغة قريش وهذيل وتميم والأزد وربيعة وهوازن وسعد بن بكر ."

قال أبو عبيد[2]:"وليس المراد أن كل كلمة تقرأ على سبع لغات، بل اللغات السبع مفرّقة فيه" [3].

ومما يؤيد اختيار الضمدي لهذا المعنى رده على الزمخشري عندما شنّع على قراءة ابن عامر قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ قَتۡلَ أَوۡلَٰدِهِمۡ شُرَكَآؤُهُمۡ لِيُرۡدُوهُمۡ وَلِيَلۡبِسُواْ عَلَيۡهِمۡ دِينَهُمۡۖ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُۖ

(1) سبق تخريجه.

)2 (هو: القاسم بن سلام، أبو عبيد البغدادي، كان ثقة عالماً بالقراءات واللغة، وصنّف الكتب الكثيرة، توفي سنة224هـ. انظر: الكاشف (128/2)، وتقريب التهذيب،لابن حجر(ص450 .(

(3) الفرات النمير (84/1).

فَـذَرْهُـمْ وَمَـا يَفْـتَرُونَ ﴾ [سورة الأنعام: 137]،ببناء (زُين) للمفعول،ورفع (قتلُ) على أنه نائب فاعل، وإضافته إلى شركائهم ونصب (أولادَهم) على طريقة قوله :

زجَّ الـــقلـــــوص أبـــــي مـــــزادة [1]

وهي لغة بعض العرب، والذي ألجأهم إلى ذلك الحرص على إضافة المصدر إلى فاعله؛ لأنه أحق به ولعل أنه من ضرورات الشعر ، وأن القارئ غره وجود شركائهم في المصحف مكتوباً بالياء، حيث أجاب:بأن دعوى الضرورة غير مُسلَّم به؛ لأن الشاعر يمكنه أن يضيف المصدر إلى مفعوله ، كما أن توهمه أن ابن عامر غره الرسم في المصحف ، فإن ابن عامر لم يأخذ القرآن من المصحف ولا من طريق شاذة بل من طرق صحيحة مشهورة عند القراء مسموعة من لسان أفصح من نطق بالضاد وليس عليه أن يقتصر على لغة قريش ، وقد أنزل عليه القرآن على سبعة أحرف[2]، وإلى هذا القول ذهب أبو عبيد القاسم بن سلام، واختاره ابن عطية ونسبه لكثير من أهل العلم وصححه البيهقي في الشعب [3].

أما بقية الأقوال فسأذكر منها خلاصة أشهرها وهي خمسة أقوال:

)1 (وهو عجز بيت مطلعه: فزججته بمزجة ، والزج: الطعن بالرمح ، والقلوص: الناقة الشابة. انظر: خزانة الأدب،للحموي(380/4 .(

(2) الفرات النمير (449/1).

(2) ينظر فضائل القرآن؛ لأبي عبيد (168/2) ، مقدمة ابن عطية (ص269)، شعب الإيمان؛ للبيهقي (536/3 .(

القول الأول:أن هذا الحديث من المشكل المتشابه الذي لا يعلم معناه؛ وذلك لأن الحرف مشترك لفظي يصدق على معان كثيرة، ولم يعين المراد منها في الحديث، وقد نسب هذا القول إلى ابن سعدان النحوي[1]، واختاره السيوطي [2] .

القول الثاني:أن حقيقة العدد غير مرادة؛ لأن لفظ السبعة يطلق في لسان العرب ويراد به الكثرة في الآحاد، وكأن مراد هؤلاء أنه رخص للصحابة أن يقرأ كل منهم بلغته دون تحديد وهذا يؤدي إلى القول بمشروعية القراءة بالمعنى ، وقد نسب هذا القول إلى القاضي عياض [3].

القول الثالث: أن المقصود سبعة أصناف من المعاني والأحكام هي: الحلال والحرام،والأمر،والزجر، والمحكم والمتشابه، والأمثال .

القول الرابع:أن المراد بها سبع لغات من لغات العرب في المعنى الواحد تختلف فيها الألفاظ والمباني مع اتفاق المعاني،أو تقاربها،وعدم اختلافها وتناقضها،وذلك مثل:هلم،وأقبل،وتعال،وإليّ،ونحوي،وقصدي،وقربي،فإن هذه ألفاظ سبعة مختلفة يعبر بها عن معنى واحد،وهو طلب الإقبال، وإلى هذا ذهب سفيان بن عيينة[4]، وابن جرير الطبري[5] والطحاوي وغيرهم.

---

(3) حكاه عنه ابن عبد البر في التمهيد (274/8)، والزركشي في البرهان (305/1) ، وهو: أبو جعفر ،محمد بن سعدان الضرير الكوفي النحوي المقرئ ، توفي سنة 231هـ. انظر: بغية الوعاة،للسيوطي (111/1 .(

(2) انظر: حاشية السيوطي على سنن النسائي (152/2).

)3 (انظر: مناهل العرفان،للزرقاني (166/1). وهو: أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي ، توفي سنة455هـ. انظر: الديباج المذهب؛ لابن فرحون (46/2 .(

)4(هو: سفيان بن عيينة بن أبي عمران ميمون الهلالي الكوفي،كان حافظاً ثقة واسع العلم،قال عنه أحمد: ما رأيت أحداً من الفقهاء أعلم بالقرآن والسنن منه ، توفي سنة 198 هـ. انظر: تهذيب التهذيب،لابن حجر (4/ 117 .(

(5)جامع البيان،للطبري(45/1).

القول الخامس:أن المراد بالأحرف السبعة وجوه التغاير السبعة التي وقع فيها الاختلاف،وهي اختلاف الأسماء بالإفراد والتّثنية والجمع والتّذكير والتّأنيث،واختلاف وجوه الإعراب،واختلاف التّصريف،والتّقديم والتّأخير،والاختلاف بالإبدال،والزّيادة والنّقص،واختلاف اللهجات بالتّفخيم والتّرقيق، وإلى هذا ذهب ابن قتيبة، وأبو الفضل الرازي ، وابن الجزري [1].

هذه أشهر الأقوال في المعنى المراد من الأحرف السبعة، وهي أقوال متداخلة؛ لذلك توقف فيها بعض الأئمة كالسيوطي[2]،وبعضهم لم يصرح في التوقف إلا أنه لم يرجح كالزركشي مع أنه أطال في ذكر الأقوال ومناقشتها [3].

)1 (حديث الأحرف السبعة ،لعبدالعزيز القارئ (ص45 .(

(2) انظر: حاشية السيوطي على سنن النسائي (152/2).

(3) انظر: البرهان،للزركشي (305/1-319).

وجميع هذه الأحرف السبعة قرآنٌ أنزله الله تعالى على نبيّهﷺوليست اجتهاداً،قُصد بها التّيسير على الأمّة في أخذ القرآن وتلاوته،فيجب الإيمان بها من حيث الإجمال،كما يجب الإيمان بما علمنا صحّة نقله منها من حيث التّفصيل،ولا يحلّ الإقدام على جحدها أو جحد شيء منها إذا ثبت النّقل به،وإن لم يأت على موافقة رسم المصحف(1).

الخاتمة

وبحمد الباري ونعمة منه وفضل ، وصلنا إلى نهاية الدراسة ، فإن أصبنا فمن الله ، وإن أخطأنا فمن أنفسنا والشيطان .

ولقد تناولتُ دراسة نزول القرآن في تفسير الضمدي (1048هـ) " الفراتالنميرفيتفسيرالكتابالمنير " ، واحتوت على نبذة عن العلامة الضمدي وتعريف نزول القرآن وبيان أهميته ، وموقف الضمدي من نزول القرآن وفيه: نزول القرآن منجماً، والقول في أول ما نزل وآخر ما نزل من القرآن الكريم ، وفي نزول القرآن على سبعة أحرف .

ويهدف البحث إلى تسليط الضوء على "نزول القرآن " من كتاب "الفرات النمير في تفسير الكتاب المنير"،للعلامة الضمدي.

(1) المقدمات الأساسية في علوم القرآن،لعبدالله الجديع (ص77).

وتظهر أهمية الدراسة في أنها توضح موقف الضمدي في مسائل نزول القرآن وعنايته بها، وتكشف عن آراء أجلة من العلماء في مسائل نزول القرآن، وتقارن بين ما قرره الضمدي في نزول القرآن في تفسيره ، وما قرره أشهر المفسرين في تفاسيرهم .

ويتميز العلامة الضمدي في تفسيره " الفرات النمير في تفسير الكتاب المنير "ببراعته في الاختصار،مع غزارة علمه حيث يختصر العبارات بمضامين كثيرة بليغة أكسبت الكتاب قوة وتميزاً.